باب آخـــر

مِن القِيَـــام

(فصـــــل)

إذا اعتاد الرجل القيام نُبِّه لذلك

● عن ابن مسعود : « إذا نام الرجل وهو يريد القيام من الليل أيقظه إما سنور ، وإما صبى ، وإما شيء فيستيقظ ، فيفتح عينيه وقد وُكل به قرينان : قرين سوء وقرين صالح ، فيقول قرين السوء : إفتح بشرّ ، نمْ إن عليك ليلاً طويلاً ما تسمع صوتاً ولا قيام أحد ، فإن نام حتى يصبح أتاه الشيطان فبال فى أذنه ، فأصبح ثقيلاً كسلانًا خبيث النفس مغبونًا ، ويقول الملك : إفتحْ بخير ، قم فاذكر ربك وصلِّ ، فإن قام فتوضأ ثم دخل المسجد فذكر الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى ﷺ ، فإذا فرغ من صلاته استقبله الملك فقبّله ثم يصبح طيّب النفس قد أصاب خيرًا » .

● وقال زياد النميرى : «أتانى آت فى منامى فقال : قم يا زياد إلى عبادتك من التهجد وحظك من قيام الليل ، فهو والله خير لك من نومة توهن بدنك ، وينكسر لها قلبك ، فاستيقظت فزعًا ثم غلبنى النوم ، فأتانى فقال : قم يا ابن زياد فلا خير فى الدنيا إلا للعابدين فوثبت فزعًا » .

● وعن يحيى بن سعيد بن أبى الحسن قال : «كان أبى إذا جنّ عليه الليل قام فتوضأ ، ثم عمد إلى محرابه فلم يزل قائماً فيه يصلى حتى يصبح ، قال أبى : فنمت ليلة عن وقتى الذى كنت أقوم فيه ، فإذا بشاب جميل قد وقف علىّ فقال : قم يا سعيد إلى خير ما أنت قائم إليه ، وقم إلى تهجدك فإن فيه رضاء ربك وحظ نفسك ، وهو شرف المؤمنين عند مليكهم يوم القيامة ، قال : فحدثت به أخى الحسن : فقال : قد أطاف بى هذا الشاب قديماً » .

● وقال أزهر بن ثابت التغلبى : «كان أبى من القوّامين لله فى سواد هذا الليل ، قال : رأيت فى منامى امرأة لا تشبه نساء الدنيا ، فقلت : مَنْ أنت ؟ قالت : حوراء أمة الله ، قلت : زوّجينى نفسك . قالت : اخطبنى إلى سيدى وامهرنى ، قلت : وما مهرك ؟ قالت : طول التهجد .

• وحال الحوراء مع الدارانى ليس ببعيد .

• قال عبد الواحد بن زيد : كنا فى غزاة فنزلنا منزلاً فنام أصحابى ، وقمت أقرأ فجعلت عيناى تغلبانى وأغالبهما حتى استتمّت جزوى ، فلما فرغت وأخذت مضجعى ، قلت : لو كنت نمت كما نام أصحابى كان أروح لبدنى ، فإذا أصبحت قرأت جُزوى ، ثم نمت فرأيت فى منامى شابًا جميلاً وبيده ورقة فدفعها إلىّ فإذا فيها مكتوب :

ينام منْ شاء على غفلة   والنوم أخو الموت فلا تتّكلْ

• وعن سهيل بن حاتم : «كنت فى بيت المقدس فكان قلّما يخلو من المتهجدين ، فقمت ليلة فلم أر فى المسجد متهجدًا فقلت : ما حال الناس الليلة ، إذ سمعت قائلاً منْ نحو الصخرة يقول :

فيا عجبًا للناس لَذّت عيونهم   مطاعم غمض بعده الموت منتصبْ
فطول قيام الليل أيسر مؤنة   وأهون من نار تفور وتلتهبْ

قال : فسقطت لوجهى وذهب عقلى ، فلما أفقت نظرت فإذا لم يبق متهجدًا إلا قام .

• وعن رابعة العابدة : « اعتللت علة قطعتنى عن التهجد وقيام الليل ، ثم رزقنى الله العافية ، فاعتادتنى فترة عقب العلّة ، فبينا أنا ذات ليلة راقدة أُريتُ جارية ، فأدخلتنى قصرًا ـ فتلقانا فيه وُصَفاء[1] بأيديهم قالت : أفلا تجمروا هذه المرأة ، قالوا : قد كان لها فى ذلك حظ فتركته ، ثم أقبلت على فقالت :

صلاتك نور والعباد رقود   ونومك ضد للصلاة عنيد
وعمرك غنم إن عقلت ومهلة   يسير ، ويفنى دائمًا ويبيد

---

(١) جمع وصيف وهو الخادم .

قالت : فما ذكرتها إلا طاش عقلى وأنكرت نفسى .

● وقال آخر : « نمت ليلة عن جزوى فأريت فى منامى قائلاً يقول لى :

عجبت من جسم ومن صحّة ... ومن فتى نام إلى الفجر
فالموت لا تؤمن خطفاته ... فى ظلم الليل إذا يسرى
من بين منقول إلى حفرة ... يفترش الأعمال فى القبر
وبين مأخوذ على غِرّة ... بات طويل الكبر والفخر
عاجله الموت على غفلة ... فمات مثبورًا إلى الحشر

قال فما نسيتها بعد »[1] أ . هـ .

ويرحم الله رابعة زوجة أحمد بن أبى الحوارى حين تقول له : « إنما أقوم إذا نوديت » .

(فصـــــل)

نزول الملائكة والسكينة وحضور عمّار الدار صلاة الليل لاستماع القرآن

عن البراء قال : « كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط بشطنين فتغشته سحابة فجعلت تدور وتدنو ، وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبى ﷺ فذكر ذلك له فقال : « **تلك السكينة تنزّلت للقرآن** » وفى أخرى « **تنزلت عند القرآن** » « **تنزلت بالقرآن** » .

وفى رواية أخرى « **اقرأ فلان فإنها السكينة ...** » معناه كما قال النووى : كان ينبغى أن تستمر على القرآن وتغتنم ما حصل لك من نزول السكينة والملائكة وتستكثر من القراءة التى هى سبب بقائها .

وفى هذا الحديث فضيلة القراءة ليلاً ، وأنها سبب لنزول الرحمة وحضور

---

(١) النقل من كتاب مختصر قيام الليل من ص ٤٤ ـ ٤٦ .

الملائكة « وقد حدث مثل هذا لأسيد بن حضير عند قراءة للبقرة كما مرّ بك ولثابت بن قيس » .

[أخرج أبو داود من طريق مرسلة قال : « قيل للنبي ﷺ : ألم تر ثابت بن قيس لم تزل داره البارحة تزهر بمصابيح قال : فلعله قرأ سورة البقرة فسئل قال : قرأت سورة البقرة][1] .

عن عبادة بن الصامت : « إذا قام أحدكم من الليل فليجهر بقراءته فإنه يطرد بجهر قراءته الشياطين وفساق الجن ، وإن الملائكة الذين هم فى الهواء وسكان الدار يستمعون لقراءته ويصلون بصلاته فإذا مضت هذه الليلة ، أوصت الليلة المستأنفة فتقول نبهيه لساعته ، وكونى عليه خفيفة » .

- وقال محمد بن قيس : بلغنى أن العبد إذا قام من الليل للصلاة هبطت عليه الملائكة تستمع لقراءته واستمع له عمار الدار وسكان الهواء .
- وعن يزيد الرقاشي أن صفوان بن محرز المازنى كان إذا قام إلى تهجده من الليل قام معه سكان داره من الجن فصلوا بصلاته واستمعوا لقراءته .
- وعن عمر بن ذر عن أبيه بنحوه .

(١) فتح البارى ٦٧٥/٨ .

بــــاب

أىّ الليــــل أفضــــل ؟

وأى وقت أفضل من وقت التنزل الإلهى ، وساعة الإستجابة من الليل ، ولقد فهم الأنبياء صلوات الله عليهم – وهم أعقل الناس عن ربهم – ذلك فقاموا فى أشرف الأوقات .

وقد اختلفت الروايات فى تعيين الوقت الطيب المبارك وهو وقت التنزل الإلهى ، وانحصرت فى ستة :

(١) حين يبقى ثلث الليل الآخر . (٢) إذا مضى الثلث الأول . (٣) الثلث الأول أو النصف . (٤) النصف . (٥) النصف أو الثلث الأخير . (٦) الإطلاق .

والرواية السادسة المطلقة تُحمل على المقيدة . والتى بأوْ إن كانت للشك فالمجزوم به مقدم على المشكوك فيه ، وإن كانت للتردد فيجمع بين الروايات بأن ذلك يقع بحسب اختلاف الأحوال لكون أوقات الليل تختلف فى الزمان وفى الآفاق .

ويحتمل أن يكون النبى ﷺ علم بأحد الأمرين فى وقت فأخبر به ثم أعلم بالآخر فى وقت آخر فأخبر به .

ولنختر ما اختار أصحاب الحديث وشيوخه وهو ثلث الليل الآخر وهو الذى تظاهرت عليه الأخبار بلفظه ومعناه .

لنختر ما اخبرنا به الصادق المصدوق ﷺ عن أفضل الصلوات عند الله وهى صلاة نبى الله داود عليه السلام وما اختاره لنفسه ﷺ .

فقيام داود عليه السلام : «يقوم ثلث الليل بعد شطره (نصفه)

كما فى رواية مسلم التى أتت « بثم » وهى للترتيب ، « ويرقد آخره » ، وهو الذى اختاره الرسول ﷺ لنفسه ، وروته عنه أعلم الناس به عائشة رضى الله عنها «كان ينام أوله ، ويقوم آخره فيصلى ثم يرجع إلى فراشه ، فإذا أذّن المؤذن وثب ، فإن كانت به حاجة اغتسل وإلا توضأ وخرج »[1] وثبت أنه كان يقوم إذا سمع الصارخ وينام السحر الأعلى وهو سدس الليل الآخر ، وهو ما أقر عليه نبى الله ﷺ وحبّذه وحكم به لأصحابه حين يقول لأبى الدرداء « **صدق سلمان**» لمّا قال لأبى الدرداء من آخر الليل «قم» وهو جوف الليل الآخر.

فاختر لنفسك ما اختار الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ ونبيه داود عليه السلام .

سئل الحسن أى القيام أفضل ؟ قال « جوف الليل الغابر إذا نام مَنْ قام من أوله ولم يقم بعد مَنْ يتهجد فى آخره فعند ذلك نزول الرحمة وحلول المغفرة ، فلمّا سمع هذا مُسْمَع بن عاصم بكى وقال « إلهى فى كل سبيل يبتغى المؤمن رضوانك »[2] .

(١) اللفظ للبخارى من كتاب التهجد باب مَنْ نام من أول الليل وأحيا آخره .
(٢) مختصر قيام الليل ص ٤٠ .